الفصل الثانى

لمـــاذا التربيـــة ؟

تساؤل فيه بداهة الإيجاب والجواب معاً ..

ذلك أنَّ العرض المسْهب الذى أجريناه من خلال موضوعات الفصل الأول يؤكد بصورةٍ جازمة وأساسية أن الأُنثى فتاة كانتْ فى دور النشوء ، أو زوجةً فى المرحليّة الأولى للخليَّة الاجتماعية ، أو أُمّاً تشكل المحْور الأساسى فى تكامُل الأسرة وبنائها ..، هذه الأنثى ذات دَوْرٍ خطير ، وعظيم الشأن ، له آثارُه الصميميّة فى مسيرة الإنسانية مُنْذُ « آدم » و « حوّاء » إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عَلَيْها .

وما من شَكٍّ فى أن تلازماً مصيرياً يربط بيْن أهمِّيَّة الدَّوْر وأهمِّية المنهج التَّربويِّ ، كىْ يتأتّى للأُنثى أن تنهض بأعباء الوظيفة الاجتماعية ، وهل من دَوْرٍ فى الحياة البشرية يعْدل دَوْر بناءِ الْفَرْد ؟ الدَّوْر الذى تضطلع بأعْبائه الأنثى ـ (الفتاة ، والزوجة ،والأُمّ) ـ دون الذَّكَر .

ونعودُ إلى ما أسْلفْنا من قولٍ لـ (ألكسيس كاريل) ، وهو يتساءل متعجّباً :

[أَلَيْس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفةٍ عامّةٍ على أيَّةِ دراسةٍ مستفيضة للصّغار والْأطفال ، وصفاتهم (الفسيولوجية والعقلية) ؟.

ويجب أن تُعاد للمرأة وظيفتها الطبيعيّة التى لا تشتمل على الحمْل فقط ، بل أيْضاً على رعاية صغارها] .

نعودُ ... لِنُقِرَّ مع العالم المفكّر بالضرورة الحتمية التى يفترضها أساساً فى مناهج تعليم البنات ، وتهيئتِهِنَّ لوظيفتِهِنَّ الطبيعيّة ، إنْ عاجلاً أو آجلاً .

ومن هُنا كان غرضنا فى التساؤل : لماذا التربية ؟.

ولنتوسَّع فى المفهوم كى يشمل أهميّة الدَّوْر .

إنَّ التربية بمفهومها الخُلقىّ والتوجيهىِّ ، والتكوين النفسىِّ والوجدانىّ ، مطلوبة لكلا الجنسيّن ، ولكنها تتطلَّبُ توسُّعاً أكبر وجُهْداً أعظم بالنسبة للأُنثى ،

obeikandl.com

بحيْثُ تتأقْلم فيها النظريات والأسُس ، وتُصبح مع مرور الزَّمن (مدرسةً) قائِمة بذاتها ، متميّزةً بمنهجها ، وموئلاً للبناء شامخاً .

وبالإضافة إلى ما لحظه (ألكسيس كاريل) من نقْص فى مناهج تعليم البنات ، لإعدادهن لوظيفتهنّ الطبيعية ، نرى أنَّ التمايُز الجنسىّ والنوْعىّ بيْن الأنثى والذَّكر لا يحظى بالاهتمام المطلوب فى عُمق الدَّرْس والتوجيه ، ونعجبُ لهذا النقص أيْضاً ، عِلْماً بأنّه فى مرحلة البلوغ يُشكّل مفرقاً خَطِيراً ...، يفترض فى منهج التربية والتعليم حيِّزاً يشمل هذه الكيْنونة ويُغطّى مساحتها الشاسعة ، على مدى تقلُّب الأنثى ...، من العُذْرية إلى الزواج إلى الأُمومة .

وإن كثير من الفتيات ، أوْ جُلَّهُنّ يجْهلْن أكثر الحقائق عن أُنوثَتهنَّ التى هى فى صُلْب التَّربية ؛ وفى إدراك تلك الحقائق يُساهِمْنَ فى سَدِّ الخَلَل التربوىِّ الواقع ، على الصعيد الفردى والاجتماعى .

وأحاول أن أركّز على التربية الجنسيّة ؛ لأنّها أشد خطورة فى حياة الأُنثى ؛ تربية علمية منهجيّة وتربية منزلية توجيهيّة .

تقول الدكتورة : (ماريون هيلارد) ـ رئيسة قسم النساء والولادة بجامعة تُورنتو ـ :

[جاءت إلى مكتبى إحدى المدرسات ، وهى فتاة هادئة رزينة ، لم تتزوَّج بَعْد ، وكانت تشكو من الصُّداع والأرق .

وتحدثت فدارتْ حوْل المَوْضوع ، ولم تُفْصح ، ثم أخذت تشير إلى رجُلٍ كانت (تصادقُهُ) أخيراً !!؟.

ولقد تنبَّهْتُ فجأة إلى أنها كفّت عن مواصلة الحديث ، وتضايقت لأن خواطرى سرحتْ بى بعيداً ، فمضتْ بضْع دقائق ، لم أسْمع خلالها كلمة واحدة ، ولكنى أردْتُ أن أستدرجها فقُلت : (حسناً ..؛ وبعد ذلك طلب مِنْك أن تصحبيه إلى مسكنه ، فماذا كان جوابك ؟) عندئذ تملكتْها الدهشة ، وفغرت فاها قائلة : كيف عرفتِ ذلك ؟ لقد كنتُ على وشك أن أقول لك هذا !!.

ولكننى عرفت ...

لأنى كثيراً ما سمعتُ أمثال هذه القصّة فى صُوَر مختلفة خلال العشرين عاماً

obeikandl.com

التى زاولتُ مهنة الطب ؛ وكانت هذه الصُّور تنتهى إلى نتيجةٍ واحدة . فمهما تختلف روايات القصة ، وسواء كُنّ فتياتٍ لم يَبْلُغْن سنّ الرُّشد ، أو من اللاتى فاتهُنّ قطار الزواج ، وسواء كُنّ جميلاتٍ أو عاديّات ، فإن هذه الدعوة المحتومة تواجههن جميعاً فى وقت أو فى آخر .

وهى بالنسبة لهُنّ أمر غريب ، بل تطوّر يبعث على الدهشة ، وكل فتاةٍ تقول لنفسها : (لست من ذلك النوع من الفتيات)!

وهذا هراء ..

اللهُم إلا بالنسبة لقلّة قليلة من النساء وصلت حيويّةُ الوظائف من أجسامهن إلى درجة بالغة الانخفاض ؛ فالواقع أن (كُلَّ) فتاة من ذلك (النَّوع) من الفتيات ، و (كُلّ) امرأةٍ من أولئك النساء قد ارتكبت الخطأ الشائع ... وهو : التهوين من مقدرتها الحيويّة وعدم إعطائها حقّها .

فإن الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ قد زوّدها بنوع خاص من العُدَد والرغبات ، والرائحة الفوّاحة التى تجعلها مشتهاة من الرجال ..، ومع ذلكَ فإن نوبةً من العُجب البرىء تعتريها عندما تؤدى تلك القوى الحيويَّة وظيفتها .

ويُخيّل لبعض النساء أن أنوثتهُنَّ معناها أن تكون الواحدة منهنّ مجموعة من الْخدع ، مثل الصراخ لدى رؤية الفيران .. أو الضعْف فى علْم الحساب .

ولكن كل طبيب يستطيع أن يخبرك أن الأنوثة متوحِّشة !!!.

فالأنثى مزوَّدة بجهاز تناسُلىّ يسيطر على كيانها ، وهو جهاز ذو قُوَّة مدمّرة تستطيع أن تحطِّم القيود والأغلال دون أى نذير ، وذلك عندما يشترك رجل وامرأة فى ضحكةٍ خفيّةٍ أو تتلامس يداهُما .

وهذا الجهاز الحيوىّ يمكن أن يبلغ أوْج انفعاله إذا ما أثاره فجأة أنين خافت أو ليلة صيْف رُصِّعتْ بالنجوم ، أو حتى الضباب المتكاثف حوْل مصباح الشارع ، عندئذٍ تحسّ المرأة بالرغم منها بشىءٍ يعصف بكيانها الداخلىّ ، فيملؤها بتباريح الألم والشوْق .

كذلك فإن (غريزة الجنس) فى المرأة قادرة على أن تُضْفى عليها البهاء

obeikandl.com

والجمال ، فالغريزة الجنسية فى المرأة هى (القوة الداخليّة) التى تجعلها تفيض (عَطْفاً) و (حناناً) على الأطفال ، والتى تمكّن المرأة من أن تقبض على عصا (الجولف) وتضرب بها الكرة ضربةً قوية محكمة تنتزع من الكرة غطاءها .

وهذه الغريزة الجنسية جزء من عاطفة الشفقة التى تحس بها الأُنثى عندما تشاهد حيواناً يقاسى العذاب والألم .

وهذه الغريزة عينُها هى أيْضاً بعض عناصر الشعور بالعطف والمودَّة الذى يفيض به قَلْب المرأة إزاء شخص يُعانى الوحدة والوحشة .

وعندما كُنْتُ طبيبة ناشئة كان علىَّ أن أهتمّ بأولئك الفتيات غير المتزوجات واللواتى يوشكن أن يصبحن أمهات ، فكنت أسأل بعض أولئك الفتيات مِمَّنْ تميزن بالذكاء والحسّ المُرْهَف : (كيف أمكن أن يحدث لك ذلك ؟) فكانت الفتاة تجيبُنى قائلة : (لم أستطع أن أضبط نَفْسى) !!.

ولكنى فى ذلك الوقت كنت لا أستطيع أن أصدق ذلك ، فقد كنت أقول لنفْسى ، بل أعتقد كما تعتقد سائر النساء ، أن فى وُسْع المرأة أن تضبط نفسها وعواطفها مع الرجُل ، فإذا أصبحت العاطفة التى تربط بيْن الرجل والمرأة قويّة واكتسحت حدودها المرْسومة ، فليس ذلك إلا لأن المرأة رغبت فى ذلك ، بل ورحّبَتْ به .

أما الآن ... فأنا أعقل وأرشد ، وأعرف أن هذا غير صحيح ، فهناك فى العلاقة بيْن الرجل والمرأة لحظة لا يُمكن أن يتحكم الإنسانُ أثناءَها فى عواطفه أو يُسيْطر عليها ، ومن ثم يضيع (شرف) المرأة إلى الأبد .

وخط دفاع المرأة الأوّل ضد تلك الخديعة العاطفية هو أن تدرك المرأة أن فَوَران العاطفة ليس أمراً ممكناً فحسب ، بل هو أيضاً أمرٌ طبيعى وعادى .

وخيْر وسيلةٍ تدافع بها المرأة بنفسها عن نفسها هى ألّا تثق أبداً بمقدرتها على أن تقول : (لا) فى اللحظة الحاسمة ؛ فإن الاعتقاد بأن فى وُسْع المرأة أن توقف المخادنة عندما يصل الغزل إلى اللحظة التى تحتشد فيها عاطفة المرأة احتشاداً كاملاً ، هذا الاعتقاد ليس إلّا كميناً تتردّى فيه المرأة وهو كمين من صُنْع الشعراء والخياليين .

obeikandl.com

ولهذا السبب عينه ينبغى للنساء أن يقين أنفسهن بالتمسك دائماً بمستوى من الأخلاق والسلوك قد يبدو نادراً غير مألوف . فإن الحريّة التى تتمتّع بها الفتاة العصرية ليست سوى وهْم ، فهذه الحرية المزعومة لا تتيح للفتاة العصرية أيّة فرصة لاختيارٍ حُرّ .

على أنى لا أستطيع أن أتجاهل الواقع فأقول : ــ مثلاً ــ ، إن الفتيات دون سِنّ العشرين ــ يجب أن يَمْتنعْنَ عن القُبَل !!؟ ولكن قليلاً جدّاً من الأُمهات مَنْ يوضحن لبناتِهنّ أن الطبيعة قصدت أن تكون القُبل بمثابة (فاتح للشّهية) دون أن تكون وجبة كاملة ، فعاطفة الحبّ الإنسانىّ ليست لعبة يلهو بها شخصان عندما ينوء أحدهما أو كلاهُما بأعباء الحياة . وإنّه ليُفزعُنى أن تحرص الروايات السينمائية .. والأغانى ... وبرامج الإذاعة ... والتلفزيون .. أن تصوّر كلها من الحُبّ الجانب العاطفىّ الخيالىّ وحده ، وهكذا يخيّل للبالغين أن ذلك الخيال هُو الحبّ كُلّه ــ وهذا وهْم خاطئ ــ فالحب الحقيقى هو العطف والمودّة والحنان ، فهذا الإطار من الحنان هو العنصر الباقى على الزمن فى أيّة رابطة بيْن رجُل وامرأة ، بل هو الذى يبقى مدى الحياة .

وكذلك إذا فشلت الزوجات فى إدراك قيمة حيويتهنّ وتكوينهن العُضوىّ ، فإنهنّ يجلبْن الشقاء والتعاسة على أنفسهنّ . والزوجات اللائى تملؤهنّ الثقة بأن شيئاً لن يحدث لهُنّ ، لأنهنّ مع خيرة الأصدقاء أو الجيران ، ويعمدن أحياناً إلى إشباع غرورهنّ ببعض القُبل السّهْلة والأحضان ، أولئك الزوجات لا يدرين أنهنّ إذ يَفعلْن ذلك إنما يُطلقْن العقال لقوّةٍ جامحة ليس من الميسور كبْحها ؛ وأنا أعرف ذلك يقيناً ..، فلقد أشرْفت على ولادة الأطفال الذين جاءوا ثمرةَ مثل هذه العلاقات ، واستمعْت أيضاً إلى تفاصيل حوادث الطلاقة التى أعقبت ذلك ؛ وأولئك الزوجات يَنتحبْن قائلات : (لم نستطِعْ أن نَضْبط أنفسنا) وأنا أُصدِّقُهُنَّ ؛ ومع ذلك فقد كان فى مقدورهن أنْ يتفادَيْن الكارثة ، لوْ لم يوافقْن على ترْك الزوْج ومصاحبة الصديق أثناء العوْدة إلى البيْت أو الذهاب إلى النادى .

منذ بضْع سنوات جاءت صديقة إلى مستشفى الولادة بالجامعة لتضع طفلها الثانى ، وأخبرتنى أن خيْر صديقاتها قد حصلت على إجازةٍ مُدّتها أسبوعان للعناية

obeikandl.com

بطفلها الأوّل فى المنزل وإعداد الطعام لزوْجها ..، وقلتُ فى نفسى بعد أن استمعت إلى هذه القصّة : إن ذلك لأمر عظيم !! ولكن صديقتى ، كسيرة القلْب هذه ، لم تلبث أن شرعتْ فى إجراءات الطلاق بعد بضعة أشهر من عمليّة الولادة ، وذكرت اسم صديقتها التى كانت تعنى بزوجها ..؟! وكانت صديقتى لا تَفتأ تسأل نفسها وهى محطّمة الفؤاد : (كيف تجرؤ على ذلك ..؟) إذْ لم تستطع أن تُصدّق أنّ خَيْر صديقاتها يمكن أن تغْتصب زوْجها منها .

ولكن صديقتى هذه هى التى جلبتْ تلك الكارثة على نفسها ، لأنها (استوْدعتْ زوْجها لدى صديقتها) فوضعت الاثنيْن فى موقف تسوده العلاقة الحميمة ؛ فإنى كطبيبة لا أعْتقد بإمكان وجود شىء من العلاقة الأفلاطونية بين رجُل وامرأة (يختليان) معاً كثيراً من الوقت .

ولقد أمضيْتُ أغلب أوقات عملى بيْن نساءٍ لم يتزوَّجْن ، ومِمّن يُؤَدّين حرْفةً من الْحِرَف ، وكثيراً ما كانت أولئك النساء يسألْننى : (ماذا نَفْعل بغرائزنا الجنسيّة ؟) .

وهذا سؤال مُضحك ، شبيه بما إذا سأَلَ إنسان ماذا يفعل برئتيْه ...، إن الغريزة الجنسية فى المرأة أمر عادى ، بل جُزء طبيعىّ من تكوين المرأة ، ضرورىّ لها ؛ كما أن (الأوكسجين) ضرورى للتنفُّس فالمرأة تنتفع بهذه الرغبة الجنسيّة وتستخدمها استخداماً صحيحاً لإخصاب حياتها وإنعاشها .

والمطالب الإنسانية التى لا تستطيع المرأة الاستغناء عنها لا تشمل أبداً الحب الجسدى ، وهذه المطالب هى : العطف والحنان والإحساس بالتفوّق والتقدّم ، والمركز الاجتماعى ، والشعور بالطمأنينة ؛ فهذه المطالب الأربعة هى الضرورة الدائمة .

أما الحاجة إلى الجنس فهى شوْق عابر متنقّل ، بل إنها على التأكيد عذاب أليم عميق الجذور ، ولكن هذا العذاب يمكن مواجهته بممارسة نشاط بدنىٍّ عنيف ، والانغماس فى عمل حِرَفىّ مما قد يفوق الطاقة البشريّة ، وبالتطوّع فى عملٍ خيْرى يستغرق الوقت والجهْد كله .

أما الانغماس فى العلاقة الجنسية فليس حلّاً للمشكلة ، ولقد أخبرتنى يوْماً ،

obeikandl.com

إحدى مريضاتى بصراحةٍ مطلقة أنها تفكّر جدّياً فى ممارسة العلاقة الجنسية مع شخص ما ! مع رجُل متزوّج !! ولقد حاولت أن أشرح لها معنى هذا العمل ، فقد كان ذلك معناه أن تتخلّى عن أصدقائها وأن تكذب على أهلها وأن تقْبل وتعترف بأنها زوجة ـ بعض الوقت ـ بل زوجة فى الخفاء ، مع وجود زوجة أخرى حقيقية ذات أطفال وتحظى باحترام المجتمع ، وكان عليها أن تبدأ تلك العلاقة التى لن تدوم سوى بضْع سنوات تغدو بعدها وحيدة منبوذة !!، ولكن مريضتى كانت أمْعنت الفكر فى هذه العلاقة فى ضوْء تلك الأحْوال المحزنة كلها ، وعقدت العزْم على تنفيذ قرارها .

أما أنا فقد قلت لها : عودى إلىّ بعد ثلاث سنوات عندما تكون تلك العلاقة قد وصلت إلى نهايتها فإنى سأحاول يومئذٍ أن أُعيد جَمْع شتات حياتك .

وقد عادتْ ...

عادت إلىّ بعد نحو ثلاث سنوات ، ولكنها عادت بعد أن جَفّتْ ونَصَبَتْ وأصبحتْ بلا إرادة . لقد انتهت العلاقة الجنسية وكانت مريضتى تدفع الآن ثمنها الباهظ ، لقد ركدَتْ خلال تلك السنوات وتخلّفتْ ، وتركها أصدقاؤها فأصبحوا غُرباء بالنسبة لها ، وسوْف تحتاج إلى وقت طويل جدّاً حتى تستطيع أن تلحق بالرَّكب الذى خَلّفها وراءه .

و (بلوغ) المرأة ـ سواء كانت متزوّجة أو غير متزوّجة ـ عامها الخمسين سالمة آمنة ، دون أن تتعرّض حياتها العاطفيّة لهزّاتٍ عنيفة ، يتوقف إلى حدٍّ كبير على الطريقة التى تستخدم بها طاقتها الحيويّة خلال السنوات التى تكتسحها فيها هذه الطاقة ؛ فإذا احترمتْ طاقتها الحيويّة وأيقنت أن فى وُسْع هذه الطاقة الهائلة أن ترهقها ، فإن تلك الطاقة لن تُؤْذيها .

وإذا استخدمت المرأة طاقتها الحيويّة فى مساعدة نفسها وغيْرها ، وفى بذْل معونتها وحيويّتها وعَطْفها للأصدقاء ، أو لأولئك الذي يحتاجُون إلى رقّتها وحنانها ، أو فى مجالات النشاط الحيوىّ الأُخرى ، فإن حياة تلك المرأة تُصْبح خصبة غنية مُجْزية .

ومهما يكُن من أمْر فإن الطاقة الحيويّة لدى المرأة يمكن أن تكون قوّة مضيئة

obeikandl.com

باهرة الجمال ، أو يائسة موحشة ، ولكنها لنْ تستطيع أبداً التقليل من شأنها] اهـ .

رغم طول المقال ، أحببت إيراده بتفصيله لأهميّته ، دُون المسِّ بأىّ مَقْطَعٍ منْه ، نظراً لتسلسل الحقائق ، وتتابعها فى وحْدةٍ موضوعيّة وكلها تشير إلى القيمة الأساسية للأنوثة ، كما تشير إلى وُجوب التنبُّه لها ، وصقْلها وتهذيبها ، وتوجيهها الوجهة التربويَّة السليمة ، مِمّا لَهُ وثيق الصلة بموضوع بحثنا.

الأُسْرةُ ... وعمادُهـا

الأسْرة ... أو الخليَّة الاجتماعية الأولى ، أو اللّبنَةُ الأساسيَّةُ فى تكوين المجتمع ...، مهما تنوعت الأسماء ، وتعدّدت ، تظل من حيْث الأساس والشكل ذات مدلولٍ واحد .

ولا يعزُب عن البال أنَّ لها معنىً فى (اللغة) آخر ، لوْ مُحِّص من ناحية الدلالة العامّة لتوافق معها .

إذا يُقال : أُسْرةُ المرء : أَهْلُهُ ؛ ويقال : الأُسْرةُ : الدِّرْعُ الحصينة . والأهل ؛ عادةً وعُرْفاً : زوجةُ المرء وأولاده ، فهى العناصر الثلاثة التى تتكوَّن منها الأسْرة ، وما مِنْ شَكّ أبداً فى أنَّ كلَّ عُنْصر من هذه العناصر يشكّل (الدِّرْع الحصين) للآخر ، فى كُلِّ شأنٍ من شئون الحياة ؛ ولْنَنْظُر بإمعان إلى قَوْل الله تعالى : ﴿ **هُنَّ لباسٌ لكُم وأنْتُم لباسٌ لهُنّ** ﴾[1] ، إذ أسْهَبَ العلماء المفسرون فى تحقيق معنى اللّباس ، حتى رأى بعضُهُم من خلال (التلبُّس) وحْدة التكوُّن ، وذَوَبان الذاتيْن فى ذاتٍ واحدة ...! خصوصاً فى حالة الجماع الذى يُنْتج (كياناً) إنسانيّاً جديداً ، بِفَضْلٍ من الله ورحمة ؛ ﴿ **ذَلِك تقْديرُ العَزيزِ العليم** ﴾ .

هذه الأُسرة (الخليّة) لها قوَّام واحد هُوَ الرَّجُل ، رأْسُها والقائم على شئونها ، ومُصرِّف أمورها ، المنْفق على أفرادها ، والساعى على رِزْقها ، ودرجتُه فى هذه الاختصاصات أرْفع من المرأة ﴿ **وللرِّجال عَلَيْهِنَّ درجة** ﴾ ...

وهذه الاختصاصات ، أو أكثرها ، تَنْصَبُّ من (الخارج) إلى (الداخل) ،

(١) البقرة : ١٨٧

obeikandl.com

أى أنَّ الرَّجُل يحملُ إلى الأسرة من نتاج السَّعْى والكفاح ومواجهة هموم الحياة وشجونها ما يُهيّء للأسرة (داخل) الحرم المنزلى أسباب السعادة والرخاء ، والفلاح والنجاح ؛ ومن هذه الزاوية الاجتماعية كانت (القوامَة) : ﴿ **الرجالُ قوّامُون على النّساء بما فَضّل الله بعضهم على بعض** ﴾ ؛ والتفضيل هنا ليس مَزِيَّةً بقدْر ما هُو اختصاصٌ ودَوْر .

بالمقابل هناك المرأة [(الزَّوْجة) ـ (الأُم)] ووظيفتها ودوْرها فى القيام بتدبير شئون منْزلها ، ورعايتِهِ وحِفْظه ، والسَّهر على أرْكانه المادية والبشرية باعتناءٍ وأداءٍ وتوجيه .

ونعنى بالأركان البشرية : الزوْج والأولاد .

فهى تقوم نحو الزوْج بواجب الزَّوْجية كاملاً ، من غير تفريط ولا إفراط ، حسبْ مُقْتضيات ومُتَطلّبات القواعد الشرعيّة ، والأصول والأعراف الإنسانية ...، مع صيانةِ حقوقها كاملةً غير منقوصة ، الأدبيّة والماديّة .

وكُلّما كانت على مُسْتوى المسئولية ـ بهذا الصَّدد ـ ، أضْفَتْ على الحياة الأُسريَّة ـ جوّاً من الاستقرار والهناء والرخاء ، يقارب الكمال .

ولا يفوتنا أن نُذَكّر ـ أنفسنا والقارىء العزيز ـ بما بيّنَهُ رسول الله ﷺ فى معنى قَوْل الله تعالى : ﴿ **ربّنا آتنا فى الدُّنيا حسنة وفى الآخرة حسنة** ﴾ . إذ قال ﷺ : « **إن حَسَنَةَ الدُّنيا هى المرأة الصالحة ، كما أن حسنة الآخرة هى الجنة ..** » .

وفى هذا القرآن ما فيه من إشاراتٍ لطيفة ومعانٍ سامية .

ويأتى دَوْر الأبناء بعد الزَّوْج ، فى ترتيب لا يحمل إطلاقاً معنى الأولويَّة والأسبقيَّة ، بل هو من مقتضى التسلسل فى البحث والموضوع فقط ...

إن المرأة الصالحة ، ذات المستوى الرفيع فى النضوج والإدراك ، الراعية المراعية لحقّ الزوْج والزوجيّة ، لا شكّ أنها تعى مَسْؤوليّتها فى تربية الأبناء ، التربية السليمة ، وتحصينهم بكُل خُلُق وفضيلة ، ومدِّهم بكل مَدَدٍ طيب وكريم ؛ وإحاطتهم بكل رعايةٍ وعناية ، وتهيئتهم لمواجهة الحياة ..

وما من شك فى أن فاقد الشىء لا يُعطيه ، وعليْه فإن ما نأمُله ونتمنّاه لأجيالنا

obeikandl.com

من عِلْمٍ وخُلُق ، و ... دين ، لا بُدَّ أن يتوفّر أوّلاً فى (الأُمّ) ، قوْلاً وعملاً ...

وَلنلاحظ بأن دورها ، أوْ وَظيفتها إنما هُو عمليَّةُ (تَصْدير) من (الداخل) إلى (الخارج) ، من البيْت إلى المجتمع ، من بيْن الجدران الأربعة إلى ميدان الحياة الفسيح ، بكل عجيجه وضجيجه ، بكُلّ نماذجه البشرية وتعقيداته ، ومشاكله ومتاعبه ، إذاً ... لا بُدَّ من أنْ يكون المناضل مُهيَّئاً ومُسْتَعَدّاً ، والفضْل ـ كل الفضل ـ فى آنتصاره وآستوائه من غير هزيمةٍ أو انحراف ، مرجعُهُ إلى (الأمّ) .

ولنُلاحظ أيْضاً بأنَّ الدَّوْر الذى تَضْطلع بعبئِهِ أعظم وأشَق من دَوْر الرجُل (الأب) ، وأكثر مسئوليةً ، وأكبر خطراً .

وإلّا فإن حديث رسول الله ﷺ ، أو أحاديثه ، عن مكانة الأمومة ، تَظَلُّ من غَيْر مضمون ـ وحاشى لله ورسُوله ـ !! .

« **أُمُّك ...، أُمُّك ...، أُمُّك ...، ثُمّ أبوك** » .

قالها ﷺ مردِّداً ومؤكّداً لِلَّذى سَأَلَه : « من أحقّ الناس بصُحبتى ؟ »[1] .

فمن دون كُل البشر ، إخوةً كانوا أم آباءً ، أم أقرباء أم أصحاباً ، أمْ غير ذلك ، فإنّ (الأُمّ) ـ الصالحة المؤدِّبة المربية ـ تَظلُّ فى مقامها الإنسانى متربِّعةً على عروش القلُوب ، وهى (عمادُ) الأُسْرة .

نمـاذِج إسْـلاميّـة

من الجاهلية إلى الإسلام كانت النّقْلة كبيرةً للمرأة ...

ولستُ أتوقف فى المدى الزمنىّ لكلمة (الجاهلية) ومدلولها عند حدود الجاهلية العربية ، بل توجّهى فيها يَشْمل المدى الطويل الذى عاشتْه البشريّة والإنسانِيّةُ بعيدةً عن شَرْع الله ودينه الذى أنزله على أنبيائه ورُسُلِهِ ، أو انْحرفتْ عنهُ فآستغْرقتْها شهواتُها وأهواؤها ، واستبدَّتْ بها نزعتها الحيوانيّة وشيطانيَّتُها .

---

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : « أُمُّك » قال : ثم من ؟ قال : « ثم أمك » قال : ثم من ؟ قال : « ثم أمك » قال : ثم من ؟ قال : « ثم أبوك » .

obeikandl.com

انتقلت المرأةُ بالإسلام ....، والأحرى أن نقول : انتقل الإسلام بالمرأة من طوْر الانحطاط والعَدَميَّة إلى الكيان الإنسانى والعنصريّة البشرية ، ثم بوأها مقاماً سامياً ، وخصَّها بدورها العظيم الذى أعدَّها الله تعالى لهُ ، دَوْر الأمومة وصنْع الأجيال ، وإنّى لألْحظُ فيه أعظم دَوْرٍ فى الحياة ..!!.

ولكى نكون منصفين ومثاليِّين فى اختيار النّماذج الإسلامية ، نُعوِّل على المرأة المسلمة فى العصر النبوّى ؛ لأنه القُدوة والنموذج الرفيع ، ولئن أطَلْت فى استعراض بعض الأسماء والشخصيات فعُذرى أنَّ ضرورة البحث تقْتضى ذلك .

« **سميَّة بنت خباط** » أم « عمّار بن ياسر » ـ رضى الله عنهم ـ كانت سابعة سبعةٍ فى الإسلام، عذّبها آل بنى المغيرة على الإسلام ، وهى تأبى غيره ، وكان النبىُّ ﷺ يمُرُّ بها وبزوجها وولدها وهُمْ يعذّبون بـ « الأبطح » فى رمضاء « مكة » فيقُول : « **صبْراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة** » ؛ وما زال « أبو جهل » فى شرذمةٍ من السُّفهاء يضربونها ويسيلون دمها حتى طعنها بحَرْبةٍ فى موضع العفافِ منها فقتلها ، فكانت أوّل شهيدةٍ فى الإسلام .

المهاجرات بدينهنَّ إلى الحبشة :

« رُقيّة » بنت رسُول الله ﷺ ؛ و « سهْلة بنت سهيْل » ـ على الرغم من أبيها ـ و « أم سَلَمة » [هند بنت أبى أميّة] أم المؤمنين فيما بعد ، « ليْلى بنت خَثمة » و « أمّ كلثوم بنت سهيْل » و « أسماء بنت عُمَيْس » و « فاطمة بنتْ صَفْوان » و « أمينة بنتُ خَلَف » و « رمْلة بنت أبى سفيان » ـ أم حبيبة ، وأم المؤمنين فيما بَعْد ، و « بركَةُ بنتُ يسار » و « سوْدة بنت زمْعة » ـ أم المؤمنين فيما بعد .

الشاعرة « **الخنساء بنت عمرو** » التى حضرتْ حَرْب القادسيّة ، ومعها بنوها أرْبعةُ رجال ، فحرَّضتْهم على القتال ونَصْر الإسلام ، إلى أن استشهدوا جميعاً ، فلما بلغها نَعْيُهم قالت : [الحمدُ لله الذى شرَّفنى بقتْلهم ، وأرجو الله أن يجمعنى بِهِم فى مُسْتَقَرِّ رحْمته] ـ الإصابة فى تمييز الصحابة

« **خوْلة بنت مالك** » ـ المجادلة ـ :

obeikandl.com

لقيها « عمر بن الخطاب » أمير المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ فى الطريق ، فَسَلَّم عليها ، فردَّتْ عليه السلام وقالت : [هيه يا « عُمر » ... عَهِدْتكَ وأنت تُسمّى « عُمَيْراً » فى سوق عُكاظ ، ترعَّى الصِّبيان بعصاك ، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيتَ « عمر » ...، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمِّيت « أمير المؤمنين » ، **فاتّق الله فى الرعيَّة ، واعلم أنّه من خاف الوعيد قَرُب عليه البعيد ، ومن خاف المَوْت خشِيَ الفوْت**] .

فقال « الجارود » : قد أكثَرْتِ على أمير المؤمنين أيَّتُها المرأة !!؟.

فقال « عمر » : دعْها ..، أما تعرِفُها ؟ هذه « خوْلة » امرأةُ « أوس بن الصامِت » التى سَمِعَ الله قوْلها من فوْق سَبْع سماوات ، فـ « عُمرَ » أحقّ أن يسْمع لها . ـ (الإصابة فى تمييز الصحابة) .

« **فاطمة بنت قَيس الفِهْريّة** » ـ فى بَيْتها آجتمع أهل ٱلشُّورى لاختيار خليفة للمسلمين بعد أمير المؤمنين « عُمَر » ، لعقْلها وكياستها ، واطمئنانـاً لِسِرِّيَّتها وسرِّيَّـة بيْتها .

« **أُمُّ سلمة** » أم المؤمنين (هنْد بنت أبى أُميَّة) ؛ أشارت على رسُول الله ﷺ فى غزوة « الحُديْبية » حين تمرَّد عليه أصحابه وعَصَوْه بعد أن أمرهم ثلاث مراتٍ بالنَّحْر والهَدْيِ والحلْق والإحلال ، فما قام منهم أحد ولا تحرّك ، وهم غضاب مُنكرون ...، أشارت عليه أن يخرج هو ويَصْنع بنَفْسه فَفَعل ..، فوثبوا إذْ ذاك إلى هَدْيِهم فَنحروه ، وأكبَّ بعضهم يَحْلقُ بعضاً حتى كاد بعضهم يغمى عليه من شدّة الزّحام .

المبايعاتُ بيعة العقبة :

« نسيبة بنت كعب » ـ أم عمارة ـ ، البطلة المجاهدة المقاتلة ، و « أسماء بنت عمرو » و « أمّ منيع » .

المهاجرات إلى المدينة :

« أم كلثوم بنت عُقْبة بن أبى معيط » ؛ قال « ابن سعد » : هى أول من هاجر

obeikandl.com

إلى المدينة بعد هجرة النبى ﷺ ؛ ولا نعلم قرشيّةً خرجت من بيْن أبويْها مسلمةً مهاجرةً إلى الله ورسُولِهِ غيرها ، خرجت من « مكة » وحدها .

وإن المرأة المسلمة فى العصر النبوىّ لم تترك الرجال ينْفردون بشيءٍ دونها ، فلم تكتفِ بأن تُسْلم وتغلق عليها دارها ، بل تابعت الدين الجديد فى جميع مراحله ، إيماناً وعذاباً فى سبيله ، وهجرةً له ، ودعْوة إليْه باللسانِ والسيْف !! فى نفسها ومع عشيرتها ، من زوْج وولدٍ وأهْل ، فى غيْرةٍ وحماسٍ واستماتةٍ ، وتفرغ لذلك ليلها ونهارها ، سَفَرها وحضرها ، إقامتها وهجرتها ، عذراء وزوْجاً وأُمّاً ، فبارت الرجال ، وسبقتْهُم أحياناً ، فكان أول المؤمنين منها ...، وكذلك أوّل الشهداء ، وأوّل من ردَع فتنة تمرّد .

مِن هؤلاء :

« **سمراء بنت نهيك** » كانت تؤدّب الناس وبيدها سوْط ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ـ (مجمع الزوائد) (ج ٩) (ص ٢٦٤) .

استشار « عبد الله بن الزبيْر » أمير المؤمنين «أمّه » « **أسماء بنت أبى بكْر** » (ذات النطاقيْن) فى حَرْب الخوارج عليها : « الحجاج بن يوسف » و « عبد الملك بن مروان » وقد دعوه إلى الاستسْلام ، فقالت : [إن خرجْتَ لإحياء كتاب الله وسُنّة نبيِّه فإنّ الشاة لا تُعذّب بالسَّلْخ ، فمتْ على الحق ؛ وإن كُنْتَ إنّما خرجْت على طَلَب الدُّنْيا فلا خَيْر فيك حيّاً ولا ميّتاً !! يا بُنَىّ : مُتْ كريماً ولا تَسْتَسْلم] ـ مستدرك الحاكم (٤ـ٥٢٥) .

« **أُمُّ سليم** » أم « أنس بن مالك » ـ رضى الله عنه وعنها ـ : خطبها « أبو طلحة » قَبْل أن يُسْلم ، فقالت له : [أفلا تَسْتحى !!! تعْبد شجرةً ؟! إن أسلمْتَ فإنى لا أريد منْك صداقاً غير الإسلام] قال : حتى أنظر فى أمْرى ...، فذهب ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسُول الله ؛ فتزوَّجته ، وكان صداقها الإسلام وحده .

« **أُمّ شريكٍ** » ـ القرشية ؛ أسلمت ثم جعلت تدخل على نساء قريش سِرّاً فتدْعوهُنّ وترغبهُنّ فى الإسلام حتى ظهر أمرها لأهل « مكة » فأخذوها وعذّبوها

obeikandl.com

بالتَجْويع والتعطيش أيّاماً وتركوها تحت حرِّ الهاجرة والشمس ثم قالوا : لوْلا قَوْمُك لفعلْنا بِكِ ، وفَعَلْنا .

« **أمُّ شريك** » ـ الأنصارية ـ امرأةٌ غنيّة ، عظيمة النفقة فى وجوه الخيْر ونَشْر الإسلام ، كان بيْتها مثابةً للضيّفان وأهل الحاجة من المسلمين .

« **عَفْراء بنت عبيد** » ـ النجّاريّة ـ لها سبعة أولادٍ رجال ، شهدوا كُلّهم « بَدْراً » مع رسول الله ﷺ .

« **حوّاء بنت يزيد** » ـ الأنصاريّة ـ زوجة « قيس بن الحطيم » ـ الشاعر ـ ؛ كان يصدّها عن الإسلام ويؤْذيها ويَسْخر منها ، ويأتيها وهى راكعة ، فيكشفها ويضع ثيابها على رأسها ، ويأتيها وهى ساجدة فيقْلبها على رأسها ، ويقول لها : إنّك لتُؤْمنين بدينٍ لا يُدْرى ماهو !!؟.

وإلى صُورةٍ أُخرى من صُوَر المرأة المسلمة ...

لقد جَدَّتْ واجْتَهَدَتْ ، لتَعْرف وتتعلَّم وتفوز بالحكمة التى رفعت أصحابها إلى الدَّرجات العُلى ، فصلَّتْ وجلَّتْ إلى أن سبقت الكثيرين من الرجال ، وهى التى كانت فى جاهليّتها أُمّيَّةً لاتقْرأ ولا تكتُب ، فى أُمَّةٍ أمية لاتعرفُ كتاباً ولا خَطّاً ، فضمّت إلى عملها الظافر فى الإيمان والدعْوة ، والهجرة والجهاد ، عملاً آخر برزتْ فيه وظهرت ، حتى صارت مَرْجعاً وحُجّةً لكثيرين من الرجال ، قادة وأئمّة .

شاركت الرجُل فبزّتْه فى الإتقان ، والتخصُّص أحياناً ، فى علومه المختلفة وفنونه المتنوّعة ، من علْم عام وتفسير وحديث وفقْه وفتْوى ، واجتهادٍ فيها ، ومن أدبٍ وشعْر وخطابةٍ وكتابةٍ ومعرفةٍ بالطب والسياسة والرواية والتاريخ والتدريس والنَّسب ، فأسهمت بكل ذلك فى تشييد حضارة الإسلام ، وبَنَتْ عالماً جديداً ، ومدنيّةً جديدة للإنسانية .

فمن العالمات ، عِلْماً عاماً :

« **فاطمة** » بنت رسول الله ﷺ ، و « **عائشة** » ـ أم المؤمنين ـ ، و « **حَفْصة** » ـ أم المؤمنين ـ و « **أسماء بنت أبى بكر** » و « **الرُّمَيْصاء** » و « **أمّ**

obeikandl.com

عمارة ».

ومن الفقيهات :

« زينت بنتُ أبِي سَلَمَةَ » قال « أبو رافع الصائغ » : [كُنتُ إذا ذكرْتُ امرأةً فقيهةً بالمدينة ذكرْتُها ؛ وهى أفقه امرأةٍ بالمدينة] ؛ و « عائشة » ـ أم المؤمنين ـ ؛ قال « عُرْوة » : [ما رأيْتُ أحداً أعلم بفريضةٍ ، ولا بحلال ولا بحرام ، ولا بفقهٍ ، من « عائشة »] ؛ وقال « مَسْروق » : [والله لقد رأيْتُ المشَيخَة الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألون « عائشة » عن الفرائض] ؛ وقال « عطاء » : [كانت « عائشة » أفقه الناس وأعلم الناس] ـ الحلية لأبى نعيم ـ (جـ ٢) (ص ٥٠ ـ ٦٦) .

أضف إلى ذلك مقامها فى الفُتْيا والتفسير ؛ قال « ابن حزم » : [يمكن أن يجمع من فُتياها سِفْر ضَخْم] وقال « عُروة » : [ما رأيْتُ أحداً أعلم بالقرآن من « عائشة »] .

ومن الأديبات :

« أرْوى بنت عبد المطلب » ـ عمّة النبىّ ﷺ ـ و « الخنساء » ـ الشاعرة ـ ؛ و « زينب بنت العوّام » أخت « الزُّبَيْر » ، و « سعدى بنت كُرَيْز » و « الشيماء بنت الحارث » أخت النبىّ ﷺ من الرضاعة ؛ و « عاتكة بنت زيْد » و « قتيلة بنت النضْر » ، و « لُبابَة بنت الحارث » ـ أم خالد بن الوليد ـ ، و « رقيقة بنت أبى صيفىّ » و « ضُباعة بنتُ عامر » و « فارعة بنت ثابت » و « كَبْشة بنت رافع » و « أمّ ذَرّ » ـ زوجة « أبى ذَرّ » و « أم رُفْلة القُشَيْريّة » ، و « أسماء بنت يزيد بن السَّكَنْ » ـ خطيبةُ النِّساء .

ومن المدرِّسات :

« فاطمة بنت الخطّاب » ، و « الشّفاء بنتُ عبد الله » علّمتْ « حَفْصة » ـ أم المؤمنين ـ الكتابة بعلْم رسول الله ﷺ .

ولهذه الأمثلة ، والنماذج الحيّة ، للمرأة المسلمة المتعلّمة العالمة ، فى العصر النبوىّ ، أوجْب أئمّةُ الاجتهاد (وجوب تعليم البنْت تعليماً شاملاً ؛ كما هو واجب

obeikandl.com

على الذّكَر ، سواء بسواء ، تعليما يصل بها إلى درجة هؤلاء النّسْوة عِلْماً ورسُوخاً .

أوجبوه لها وعليها ، كما أوْجبوهُ على أوليائها من حاكم وأبٍ وزوْجٍ ، فإن لم يوجد ببلدها عِلم ولا علماء ، فقد أوجبوا عليها وعلى أوليائها أن تَرْحل لطلب العلم ، أو أن تُرَحَّل من أجْله ، قَرُب المكان أو بَعُد .

ولقد وَصَلنا عن طريق المرأة المسلمة كثير من أحكام الإسلام ، واحتج بنقْلها وروايتها جميع المسلمين ، على اختلاف آرائهم ومذاهبهم ، ومُسْتويات اجتهاداتهم .

يقول « ابن حَزْم » : [ولوْ تفقّهت امرأةٌ فى علوم الديانة لَلَزِمنا قبول درايتها وقد كان ذلك ، فهؤلاء أمّهات المؤمنين ، وصواحب رسول الله ﷺ قد نقل عَنْهُنّ أحكام الدين ، وقامت الحُجة بنقْلِهِنّ ، ولا خلاف بَيْن أصحابنا وجميع أهل نحلتنا فى ذلك] ـ (الإحكام فى أصول الأحكام) (جـ ٣) (ص ٨٢) .

وذهب « أبو إسحاق الإسفراييني » إلى أن الأحكام والأحاديث التى يرويها الرجال والنساء إذا تعارضت فالمقدَّم مَرْوِىُّ المرأة ، وإن كثيراً من النساء أضبط من كثير من الرجال ؛ وقد صَوَّبه « الزرْكشىُّ » وأقَرَّهُ « العراقىّ » ـ الحكومة النبوية ـ (جـ ٢) (ص ٢٣٥)

الإمامة النسويّة :

ازدادت المرأة ثقة بنفسها ، واعتزازاً بمقامها ، وغبطة بإسلامها ، وارتقت إلى مشاركة الرجل فى أعظم شعيرةٍ من شعائر الإسلام وهى الصلاة ، فكانت إمامةً للنسوة ، فى حياة رسول الله ﷺ ، وبعِلْمه ، بل أمَرَهُنَّ ﷺ بتلك الإمامة .

تقول « ريطة الحنفيّة » : [إن « عائشة » أم المؤمنين أمَّتْهُنّ فى صلاة الفريضة] (سنن الدارقطنى : ١٥٥) .

وتقول « تميمة بنت سلمة » : [أمّت « عائشة » نساءً فى الفريضة فى المغرب ، وقامت وسطهُنّ ، وجَهَرَتْ بالقراءة] (المحلّى : ٣ : ١٢٦) .

obeikandl.com

وتقول « حجيرة بنت حصيْن » : [أمّتنا « أم سلمة » ـ أم المؤمنين ـ فى صلاة العصْر ، وقامت بيْننا] (طبقات ابن سعد : ٨ـ٣٥٦) .

وروى عن « ابن عباس » ـ رضى الله عنهما ـ : [تَؤُم المرأة النساء فى التطوُّع ، تقوم وسطهُنّ] (المحلى : ٣ـ١٢٨) .

ورُوى عن « ابن عمر » ـ رضى الله عنهما ـ أنه [كان يأمر جاريةً له تؤُم نساءه فى ليالى رمضان] (المحلى : ٣ـ١٢٨) .

وقال « إبراهيم النَّخْعى » و « الشعبى » : [لا بأس بأن تصلّى المرأة بالنساء فى رمضان وتقوم وسطهن] .

وقال « عطاء » و « مجاهد » و « الحسن البصرى » : [تجوز إمامة المرأة للنساء فى الفريضة والتطوّع ، وتقوم وسطهُنّ فى الصف] (المحلى : ٤ـ٢١٩) .

الولايـــــة :

وآختار « عمر بن الخطاب » ـ رضى الله عنه ـ زمن خلافته ، لمنصب الحسْبة وولاية السُّوق امرأةً مُسْلمة ، هى « لَيْلى بنت عبد الله القرشية » ـ العدويّة ـ ولقَبُها : (الشَّفاء) .

أسلمتْ قبل الهجرة ، فهى من المهاجرات الأوليات ، وكانت من عاقلات النساء وفضْلياتِهِنّ ، وكان رسول الله ﷺ يعرف لها ذلك ، فيزورها فى بيْتها ويقيل عندها ، وكانت قد اتخذت له فراشاً وإزاراً ينام فيه ، ومنحها داراً بالمدينة .

وكان « عمر » يقدّمها ، ويرعاها ، ويرضاها ، ويفضّلها .

وتأييداً لهذه التولية من « عمر » ـ توليته (الشَّفّاء) ـ ، واحتجاجاً بعموم موقف المرأة المسلمة من الدولة الإسلامية ، مؤمنة ومهاجرة ، وداعيةً ، ومتعلّمة ...، صَرَّح جماعةٌ من أئمة الفقهاء مجتهدين ومقلدين ، بصلاحيتها للولاية والحكم ، وجواز مشاركتها الرجل فى إدارة شئون الدولة ، حُكماً وقضاءً ، باستثناء الإمامة الكُبْرى ، والقضاء فى الحدود والقصاص .

obeikandl.com